مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (31) العدد (2)2009
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (31) No. (2) 2009

الاستطراد والنقد التلميحيّ في أمالي (اليزيديّ- القالّي- ابن الشجريّ)

الدكتور عبد الكريم يعقوب *
هيفاء ديّوب**

(تاريخ الإيداع 26 / 2 / 2009. قبل للنشر في 21 / 5 / 2009)

□ الملخّص □

النقد التلميحيّ واحدٌ من الأسباب والدوافع التي دعت أصحاب الأمالي إلى الاستطراد، بفعل تنوّع الحياة دينيّاً، واجتماعيّاً، وسياسيّاً. وقد انعكس هذا التنوّع على أساليب التعبير نظراً لاختلاف المشارب المذهبيّة، وتباين المستويات الاجتماعية، وتعدّد التيّارات السياسيّة؛ فقد برزت حريّة التعبير حيناً، لكن غير قليل من الخوف والحذر كان يلازم أهل العلم والمعرفة، فاتخذوا أسلوب الاستطراد مطيّةً لهم، استطاعوا من خلاله أن يبوحوا بأفكار لم يكن التصريح بها ممكناً.

والبحث يعالج هذا الأسلوب التعبيري، لدى ثلاثةٍ من أصحاب الأمالي؛ هم: اليزيديّ (310هـ) وأبو علي القاليّ (356هـ)، وابن الشجريّ (542هـ)، وجاء هذا الاختيار لأن هؤلاء مثّلوا تيّارات ومذاهب متباينة، في مراحل زمنيّة متتالية، ومتباعدة.

الكلمات المفتاحيّة: الأمالي – الاستطراد– النقد التلميحيّ.

* أستاذ – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .
* طالبة دراسات عليا (ماجستير) – قسم اللغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة –جامعة تشرين –اللاذقيّة –سوريّة .

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (31) العدد (2)2009
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (31) No. (2) 2009

Digression and Implicit Criticism in Al-Amali: Alyazidi, Alkali, and Ibn Al-Shajri

Dr. Abd- Alkareem Yakoub*
Hayfa Dayoub**

(Received 26 / 2 / 2009. Accepted 21 / 5 / 2009)

□ ABSTRACT □

Implicit criticism is one of the reasons and motives that have driven Al-Amali people to digress because of the religious, social, and political variety of life reflected in terms of expression the difference in religious creeds, the difference of social classes, and the variation of political doctrines. The freedom of expression has sometimes appeared, but a bit of fear and worry has accompanied people of science and knowledge. So they have resorted to digression as a technique they could use to express the inexpressible. This research deals with the expressive style used by three of Al-Amali people: Alyazidi (310 A.H.), Abou Ali Alkali (356 A.H.), and Ibn Al-Shajri (542 A.H.). This choice has come into play because these three have represented different trends and styles in consecutive and remote periods of time.

Keywords: AL-Amali, Digression, Implicit Criticism.

***Professor, Arabic Department, Faculty of Arts and humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**
**** *Postgraduate Student, Arabic Department, Faculty of Arts and humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

مقدّمة:

لا انفصال بين الأدب والنقد ، فهما من ظلال الحياة، يدفع كلٌّ منهما الآخر ويوجّهه، ويُعنى به. والأدب الذي هو ماء الفكر لاتحبسه صخور سلطةٍ ، أو عنف متنفِّذين. فكما الماء ينبجس من بين الصخور يروي الأرض، ويُخرجُ تهاويلَ النبات، ينبثق الأدب حاملاً ما في ذوات الأدباء من مواقف تميل إلى جانب وتحيد عن آخر ، فتكتمل لوحة الحياة.

وهذا البحث يستعرض جانباً من جوانب الاستطراد[1] في كتب الأمالي[2] بين القرنين الرابع والسادس الهجريّين، حين كانت أحوال الراعي والرعيّة في تقلّبٍ ، وتوتّرٍ، لا مثيل لهما، تميل حيناً إلى الاستقرار، وأحياناً تجنح إلى ما يحتاج الأديب إلى المداراة في قوله، والموارِبة في التعبير عنه.

والنقد التلميحي أحد عوامل الاستطراد في كتب الأمالي، أوجده تنوّع الحياة: دينيّاً، واجتماعيّاً ، وسياسيّاً، وانعكاسات هذا التنوّع على أسلوب التعبير. وإذا كان لاختلاف المشارب الدينيّة، وتباين المستويات الثقافيّة، وتعدّد المذاهب السياسيّة، الأثر الواضح في حريّة التعبير عن الأفكار ، فإنَّ غير قليل من الخوف والحذر كان يلازم أهل العلم والمعرفة ، فوجدوا في الاستطراد متنفّساً لهم ، ومنفذاً لأفكارهم ، يلمّحون من خلاله إلى أفكار لم يجرؤوا على التصريح بها .

وفي تناول البحث النقد التلميحي في كتب الأمالي بين القرنين الرابع والسادس الهجريين، إنّما يتناول جانباً من الإبداع خلال مدة حكم الدولة العباسيّة ، التي تنوّعت بين القوّة والمجد، والضعف والانكسار ، وضياع هيبة الخلفاء. إنّ الزمن الذي استطال حتى كاد يشمل المرحلة العباسيّة بأكملها ، حمل في طيّاته متغيّرات ، ومتناقضات، كانت وما تزال مثار نقاشٍ وجدل، ومجالاً خصباً للبحوث والدراسات ، نلمح فيها مظاهر الغنى والترف. وفي الوقت نفسه انتشر الفقر والجوع ، ازدحمت المساجد بالمصلّين وطلاّب العلم، وفي جانب آخر عجّت الحانات بمجالس اللّهو والمجون،شيِّدت المدارس، وظهر العمران جليّاً ، وفي المقابل حين نتذكّر تلك الحقبة نحسّ بلهب الكتب المحروقة، ورائحتها التي طوت كثيراً من فكر علمائنا، فإذا سرّنا ما تمتّع به بعض العلماء من حريّة وتشجيع ،فإنّ ما عاناه غيرهم من قمعٍ وملاحقة مخيفٌ ومريع ،وربّما كان هذا كلّه حسب الظروف التاريخيّة ،وطبيعة التيّارات السياسيّة،والصّبغة العامّة التي يصطبغ بها عصر هذا الحاكم أو ذاك .

وبتنوّع الفكر وتيّاراته، وطبيعةِ السلطة واتجاهاتها ، صارت أغصان دوحة الفكر تزهر حيناً ، وتتمايل مع نسيم الرّضا السياسيّ حيناً ، وتتلوّى مع عاصفة الغضب السلطويّ أحياناً. والسؤال المحوريّ الآن: كيف انعكست أحداث العصر على أصحاب الأمالي؟ وإلى أيّ حدٍّ عبّروا عنها في مجالسهم وأماليهم ؟.

بقليلٍ من التمعّن،نجد أنّ بعضهم وجد في الاستطراد وسيلةً للتعبير عن أفكار ومواقف لم يُرِدْ إعلانَها مباشرةً، مراعاةً لأمورٍ كثيرةٍ ،وآخرين لم يستخدموا الاستطراد لهدف التلميح، لأنّهم لم يكونوا راغبين في ذلك ،ولا مضطرّين إليه ،ففكرهم وافق سلطةً عايشوها ، فعبّروا عمّا أرادوا بشكلٍ مباشر من غير خوفٍ أو حرج ؛ لذلك يحاول البحث معالجة النقد التلميحيّ عند ثلاثةٍ من أصحاب الأمالي ، صوّروا في كتاباتهم الواقع عبر فترات زمنيّة مختلفة، حتى كادت تشمل العصر العباسيّ بمجمله على اختلاف أطواره ، ومثّلوا في انتماءاتهم أمثلةً على وجوه الاختلاف المذهبيّ والفكريّ ، وعُرِفوا بغنى الفكر ، وسعة الثقافة. فكانت مواقفهم من سلطات زمانهم ، وطبائع أهلها ، مبثوثةً في ثنايا أماليهم على صورة أخبار ، وتحليلات ضمنيّة، لم تأخذ صورة التصريح بها ، وهذا ما أكسبها جاذبيّةً وعمقاً.

هؤلاء المبدعون هم : اليزيديّ (310هـ) ،وأبو علي القالّي (356هـ) ،وابن الشجريّ (542هـ).

أهميّة البحث وأهدافه:

تكمن أهميّة البحث في محاولته تسليط الضوء على فنّ متميّز من فنون التأليف في أدبنا القديم، وهو الأمالي من خلال دراسة غرض من الأغراض التي يخرج إليها الاستطراد في هذه الكتب، ومحاولة استجلاء أبرز دوافعه وغاياته .

كما أنّ دراسة النقد التلميحي من خلال استطرادات العلماء تزيد معرفتنا بطبيعة العصر ،وانعكاسات ظروفه على حريّة التفكير من جهة ،ونقف من خلالها على أثر التشعّب والتنوّع والغنى في طرائق التعبير من جهة أخرى ،ويكشف هذا النّوع من الدراسة عن أسلوب تعبيري توصّل به أصحاب الأمالي لما يريدون قوله تلميحاً لا تصريحاً، لأسباب مذكورة في البحث .

منهجيّة البحث:

أمّا المنهج المتّبع في البحث فيقوم على تتبّع الاستطراد الّذي خرج لغرض النقد التلميحي ضمن إطار البحث الزمني ، ودراسة النصوص ومحاولة تقصّي خفاياها؛ لنقف على أسباب الاستطراد ودوافعه وغاياته .

النقد التلميحيّ في استطرادات اليزيدي:

هو أبو عبد الله محمّد بن العبّاس بن محمّد بن أبي محمّد يحيى بن المبارك بن المغيرة العدويّ اليزيديّ، المتوفّى سنة 310هـ ، أحد أفراد الأسرة العدويّة اليزيديّة الّتي كان لها شأن كبير لدى الدولة العبّاسيّة[3].

يضمّ كتاب "الأمالي" كثيراً من غرر القصائد ، والمقطّعات الشعريّة في الرثاء ،والمديح، والوصف، وغير ذلك، كما اشتمل على جملة من القصص، والأخبار، وأيّام العرب ، ونوادرهم.

والبحث يدرس النقد التلميحيّ في أماليه من خلال الوقوف على بعض من استطراداته ، وتحليلها.

بنظرة متأنيّة، نعثر على إشارات كثيرة ، وتلميحات واضحة إلى سوء الحياة المعيشية، وانتشار الفقر والجوع بين العامّة، وإلى خيبة أمل الناس بالدولة العبّاسيّة ، وبمؤسِّسها أبي جعفر المنصور. كمالم يغب عن اليزيديّ تسليط الضوء على حوادث، بعضها في إثبات فضل بني أميّة – ربّما للمقارنة بينهم وبين بني العبّاس – وبعضها في غير صالحهم عبَّر بها عن موقفه منهم؛ إذ تألّم لما مارسه أوائلهم بحقِّ آل البيت .

وقد قدّم الشيخ كلَّ هذه الأفكار بأسلوب ذكيّ ، مهذّب ، يعكس شخصيّة المعلّم الواثق من علمه، المتمرِّس بشؤون الحياة ، الملمِّ بأحداث عصره والعصور التي سبقته. جاعلاً التلميح وسيلته للتعبير عمّا يريد .

وفيما يأتي صور من استطرادات اليزيديّ، تتبّعناها في كتابه ، واستقرأنا من خلالها مشاعره، ومواقفه، فبعد أن روى قصّة عتق أبي رافع مولى رسول الله(ص)، وقصّةً حول تقشّف الأعمش[4] في الملبس والمطعم في الصّفحات(87-88-89) من كتابه؛ وجدناه ينتقل نقلةً مفاجئةً، ودون رابطٍ منطقي، فأورد أخباراً تحطّ من شأن أبي جعفر المنصور، ومعروفٌ لدينا جميعاً ما بين تلك الشخصيّات من اختلاف الزمان، والمكان، والمكانة. وكأنّ غاية النقد كانت جارفةً إلى حدٍّ تجاوزت فيه حدود تناسب الأخبار وتقاربها، من أيّ نوعٍ كان هذا التقارب.

جاء في الصفحتين(89 –90):((حدّثنا أبو حرب قال : سمعت عبد الله بن داؤود الخريبي يقول : مرّ أبو جعفر فبعث إلى الأعمش فخرج إليه فقال: يا أبا محمّد : ألك حاجة؟ فقال : أمّا أنا فليس لي إليك حاجة وقد ترى ما الناس فيه من هذه الحال فاتّقِ الله فيهم. قال أبو حرب: وكان الناس في ذلك الزمان يموتون جوعاً، وكان يُباع قفيز دقيق بدانق ولم تكن دراهم))[5].

ثمّ يذكر حادثة أخرى لاعلاقة لها بالموضوع ليعود فيقول:((وحدّثنا أبو حرب قال: سمعت محمّد بن عبّاد يقول: حدّثني أبو عبيد الله معاوية الكاتب قال: قال لي المهدي: قل لأمير المؤمنين إنّك ربّما خفضت في موضع الرفع ورفعت في موضع الخفض، فقال لي: يا أبا عبيد الله كان يشغلني عن هذا طلب المعاش))[6].

ألا يجدرُ بنا أن نتساءل: ما الذي يحمل شيخاً ليروي لطلاّبه مثل هاتين الحادثتين؟ أليس الدافع لهذا تقديم صورة الحياة المعيشيّة الضاربة في الفقر؟ ونعلم أنّ هذه الصورة لاتشرِّف حاكماً، ولا تدلّ على حسن رعايته رعيّته.

ولنتابع في دراسة النقد التلميحيّ عنده بذكر استطراد جديد، إذ نجده يروي خبراً آخر يرسم من خلاله خيبة الأمل في تحوّل الخلافة إلى بني العبّاس، ولا أصعب من أن يخيب الأمل بخليفة بعد أن عَظُمَ الرجاء فيه، ومن مثل هذه الحادثة الآتية:

((حدّثنا أبو حرب قال: حدّثنا سليمان بن حرب وأبوالربيع جميعاً عن حمّاد بن زيد قال: رأيت رجلاً في مسجد الحذائين طويلاً يصلّي طويل الصلاة، فقال لي رجل: هذا من بني هاشم، فقلت: نعم طوبى لنا إنْ ولي هذا أمرَنا، قال: فولينا والله وسامنا سوء العذاب))[7]يعني أبا جعفر.

وتابع قائلاً:((حدّثنا أبو حرب قال: حدّثنا مبارك الطبري قال: كان أبو جعفر من أنسى الناس إذا أراد شيئاً كتبه ووضعه تحت مصلاه، قال مبارك وأغاث الله هذه الأمة بنسيان أبي جعفر للأشياء)) [8].

وربّما كان ذكر رأس السلطة على لسان عالم، أوأديب لا يأتي عفو الخاطر، إنّما يحمل موقفاً خاصاً منه كالحبِّ والرّضا، أو الكره والنقمة، وإلاّ فما القيمة التعليميّة، أو الفائدة العلميّة، في تصوير سوء العذاب بعد عظيم الأمل، أوحلول البركة والغوث بأن ينسى الخليفة الأشياء؟ وماذا يمكن أن تكون تلك الأشياء غيرعقاب ضعيف، أو انتقامٌ من قويّ؟.

وماذا يمكن للناس أن يأملوا من رجلٍ في رأس هرم السلطة، ويلحن في اللفظ، وقراءة آي الذكر الحكيم، الذي ينبغي أن يهتدي به، ويحكم بفحواه. ولنا أن نتساءل: ماشعور عالم لغوي تجاه هذا المستوى من الغلط؟ لنتمعّن في الخبر الذي يورده اليزيديّ ص90 من كتابه:((حدّثنا أبو حرب قال حدثني عبدالله بن سلمة الأفطس قال: سمعت أبا جعفر يخطب بعرفات، فقرأ هذه الآية: " فَمَنْ تَعَجّلَ في يَوْمَيْن فلاثْمَ عَلَيهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فلاثْمَ عَلَيْه"[9] موصولتين قال: قلت هذا في الإثم لم يخرج منه))[10] .

نحن نقدِّر أن يحرص اللغويّ على أصول اللغة. لكنّ بإمكانه إثبات حرصه بأدلّة، وأمثلة دون التعرّض لأخبار الخلفاء، لولا إصراره على بثِّ موقفه منهم كما بدا في الأخبار التي أوردناها سابقاً .

ولمّا كان الإنسان محكوماً بمبدأ القياس والمقارنة فإنه يقيس عصراً بعصر، وشخصاً بآخر،فبعد أن روى في الصفحتين(139–140) حادثة "صرف معاوية بن عمر وجه دابّته عن باب خالد القسريّ لمّا أبطأ عليه الإذن" استطرد إلى حادثة تؤكّد فضل سليمان بن عبد الملك، وكأنّه يقول: أين الخليفة اليوم من سليمان بن عبد الملك ؟ حيث قال: ((حدّثني عمّي الفضل قال: حدّثنا ابن الغلابي قال: حدّثني أبي عن بعض أصحابه القدماء قال نادى رجل

سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر أيا سليمان أيا سليمان أتذكر يوم الأذان ؟ فنزل عن المنبر ودعا بالرجل فقال: أنا سليمان فما يوم الأذان قال: فقال الرجل:"فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ على الظّالمين"[11] قال فما مظلمتك: قال: أرضي وأرض آبائي اغتصبنيها وكيلك بموضع كذا وكذا ، فقال سليمان لكاتبه: اكتب إلى وكيلنا في موضع كذا وكذا يرد عليه ضيعته وضيعتنا إلى ضيعته))[12].

وإذا كان مضمون الخبر واضحاً ، ودلالته بيِّنة فإنّ الغرض من إيراده، والاستطراد إليه إنّما هو نقدٌ للواقع الذي ساد في العصر العباسي ، وخاصّةً في بدايته يومَ كان الله يغيث الأمة بنسيان الخليفة للأشياء...

ولا ينبغي لنا أن نفهم إصرار اليزيديّ على الحطّ من شأن أبي جعفر، وإظهار صور مضيئة لبعض خلفاء بني أمية على أنّه محض إعجاب بالأمويّين فقد استذكر من أخبارهم وسيرتهم مالا يفخر أحد بمثله، فحين فرغ من قصيدة أنشدها ابن الأعرابي في رعاية حقّ الصديق، والعطف عليه في الصفحتين(72-73) استطرد في ص73 من كتابه إلى الخبر الآتي:

((وحدّثنا أبو جعفر قال: حدّثنا ابن الإعرابيّ قال: قال عبد الملك بن مروان لبنيه: "إياكم ودماء آل أبي طالب فإنّ آل حربٍ تلطّخوا بها فما نوظروا"))[13].

والسؤال الآن: أمن المؤكّد ورود هذا القول عفو الخاطر أم أنّه تلميح شبه واضح إلى موقف المؤلِّف من بني أميّة، وما ارتكبه أوائلهم من بطش بأحفاد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟.

ويتعزّز هذا الفهم عند التمعّن في الحادثة الآتية، والتي استطرد إليها اليزيديّ في السّياق نفسه ص73 ليصوِّر عبثيّة يزيد بن عبد الملك إذ يقول: ((سمعتُ أبا جعفر يقول : سمعتُ أبا توبة ميمون بن حفص صاحب النحو يقول: بينا يزيد بن عبد الملك في بعض مجالسه بالشام يقلّب أحجاراً إذ قرعَ بحجر حجراً فأبدى عن كتاب أعجمي فبعث إلى وهب بن منبّه فقال: اقرأه قال: أجد فيه: ابن آدم لو عانيتَ سيرَ ما بقي من أجلِكَ لزهِدْتَ في طولِ ما ترجو من أملِك وقَصَرْتَ عن حرصِكَ وحِيَلك ورغبْتَ في الزيادة في عملِك إنّك تلقى ندمَك لو قد زلّت بك قدمُك وأسْلَمكَ أهلُكَ وحَشَمُك وتبرّأ منك القريب،وانصرف عنك الحبيب، فلا أنت إلى أهلِك عائد ولا في عملك زائد. اعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة))[14].

فإذا بدا هذا النصّ المستطرد إليه طويلاً، فإنّ مضمونه وصياغته يساعدان في استجلاء موقف اليزيدي ؛إذ أشار إلى كون الخليفة يتسلّى ،ويقرع حجراً بحجر بينما تشمل خلافته بلداناً وبلداناً،ثمّ إنّ الخطابيّة التي جاء عليها النص لم تأتِ عفو الخاطر إنّما حملت موقف المؤلّف الّذي استطرد إليه ؛فكأنّ وهب بن منبّه قد خاطب الخليفة بما في رأس اليزيدي من فكرة ،وما في نفسه من موقف ،وإلا فلم يكن مضطرّاً لذكر الحادثة برمّتها .

أوردنا بعضاً مما وجدناه من استطراد في أمالي اليزيديّ، وهي ممّا يخدم مفهوم النقد التلميحي، وكلّها جاءت تعبِّر عن موقف اليزيديّ من سلطة زمانه ، ومماانتشر يومذاك من فقر، وقلّة حيلة، وكلّ هذا نوع من الاتِّهام للخلفاء بالتقصير في رعاية شؤون الرعية. فقد كان اليزيديّ عالماً بحق، ولم يتجرّد عن صفة المعلّم لكنّه لم يعش في برجٍ عاجيٍّ يراقب واقع الناس المتألِّمين، بل راح يقول ما رآه يحرّك المياه الرّاكدة، لعلّ شروراً تتراجع، وخيراً يعمّ. وقد اتّخذ لهذا كلِّه: الأخبار مادةً، والنقد التلميحيّ أسلوباً، ومنطق القياس طريقةً.

النقد التلميحي في استطرادات أبي علي القالي:

هو إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمّد بن سلمان، المتوفّى سنة 356هـ ، أحفظ أهل زمانه للغة والشعر والأدب، ولد ونشأ في منازجرد و رحل إلى العراق، فتعلّم في بغداد ، وأقام خمساً وعشرين سنة، ثم رحل إلى المغرب سنة328هـ[15].

لم يستطع أبو عليّ أن يحقّق لنفسه الشهرة المطلوبة في بغداد، ولا أن يحتلّ المكانة اللائقة به، ممّا دفعه إلى السفر إلى الأندلس تلبية لرغبة الخليفة الناصر، وهناك استقبل بحفاوة بالغة، فقد خرج جمع حاشد من العلماء، وجلّة القوم لاستقباله وعلى رأسهم الأمير الحكم نيابة عن أبيه الخليفة الناصر، وكان هذا الاستقبال فاتحة خير، وعنوان مجد، ممّا دفع أبا عليّ ليضع بين أيدي الأندلسيّين كلّ علومه ومعارفه التي أنتجت كتاب الأمالي، والذي غدا عمدةً في موضوعه، ونموذجاً يحتذى في غزارة المادة، وغنى النصوص، وتنوّعها، وإتقان الرواية، ودقة ضبطها، ونسبتها.

وما أشبهه بفيض علميٍّ هادر؛ إذ كان ينتقل من موضوع إلى موضوع ليصبَّ كلّ ما في صدره في هذا الكتاب، ولهذا كثر الاستطراد عنده، وكان من بين دوافعه نقد تلميحيّ يبثّه في ثنايا كتابه، فهو يستطرد من موضوع إلى آخر، ويسلّط الضوء على شيء يكاد يكون فرعياً، ليظهر من خلاله واقع الحياة الذي لم يعجبه، ولم يستطع رفضه.

ومن الأمثلة على هذا ما جاء في الصفحة السادسة من الجزء الثاني من كتابه تحت عنوان (حديث المرأة التي سكنت البادية قريباً من قبور أهلها) إذ جاء:((وحدّثنا أبو بكر بن دريد رحمه الله قال أخبرنا عبد الرحمن عن عمّه قال :دُفعْتُ يوماً في تلمّسي بالبادية إلى وادٍ خلاء لا أنيس به إلا بيتٌ معتنزٌ بفنائه أعنز وقد ظمئتُ فيمّمته فسلّمت ،فإذا عجوزٌ قد برزت كأنّها نعامة راخم ،فقلْت :هل من ماء ؟فقالت :أو لبن ؟فقلْت :ما كانت بغيتي إلا الماء ،فإذا يسّر الله اللبن فإنّي إليه فقير ،فقامت إلى قعبٍ فأفرغت فيه ماء ونظفت غسله ثمّ جاءت إلى الأعنز فتغبّرتْهنّ حتّى احتلبت قُراب ملء القعب ،....)) وبعد أن أنهى (القالي) رواية هذا الحديث، بدأ بتفسير المفردات الغريبة حتى وصل إلى كلمة "قعب" فأسهب إسهاباً لافتاً، وكأنَّ الكلمة صارت موضوع بحث، فراح يفصّل المعاني، ويستشهد عليها إذ يقول: القَعْب[16]: قَدَح إلى الصغر يشبّه به الحافر، قال امرؤ القيس[17]:

لها حافِرٌ مِثْلُ قَعْب الوليــ ــد رُكِّب فيه وظيفٌ عَجُرْ

ثمّ استطرد ليذكر كلّ المترادفات التي تدلّ على المعنى نفسه، يقول:

الغُمَر: القَدَح الصغير. والعُسُّ: القَدَح الكبير. والتِّبْن: أكبر منه. والصّحن: القصير الجدار العريض. والرِّفد: القَدَح العظيم. والجُنْبُل: القَدَح العظيم الجَشِب النحت الذي لم يُنقَّح ولم يُسَوَّر. والعُلْبة: قَدَح ضخم يُعمل من جلود الإبل. وقال أبو عمرو الشيباني: الكَتن: القَدَح، وقال غيره: الوَأْب: القَدَح المقعّر الكثير الأخذ من الشراب. وقال بندار: الوَأْب: المعتدل الذي ليس بصغير ولاكبير.

قال عمرو بن كلثوم في الصحن[18]: **ألا هبِّي بِصَحْنِك فاصْبَحِينا**

وأنشد يعقوب في الجُنْبُل[19]:

إذا انبَطَحَت جافى عن الأرضِ بَطنُها وخوّأها رابٍ كهامة جُنْبُــلِ

وقال الأعشى في الرّفد[20]:

رُبَّ رِفْــدٍ هَرَقْتُه ذلك اليــو مَ وأسْرى من مَعْشَرٍ أقتالِ

ثمّ تابع تفسير ما تبقّى من مفردات غريبة.

أفلا يمكن أن يكون الدافع لهذا الإسراف في تقديم أسماء القَدَح، وأوصافها، وأشكالها، تصوير كثرة انتشار الخمر؟، هذا الأمر الذي لم يشأ أبو عليّ أن يتناوله فضحاً مباشراً لئلاّ يصطدم بمن حوله، وكذلك لأنّ التصريح بالنّهي عن الخمر جاء واضحاً في النصّ الدينيّ، وما قيمة أن ينهى عنه بعدئذٍ رجل أيّاً كان اسمه؟ وبالمقابل لايليق بعالم قضى جلّ عمره في جمع العلوم، وتقديمها، أن يكون محايداً تجاه مثل هذه الظاهرة.

وممّا يؤكّد هذا الافتراض عودة القاليّ إلى الفكرة ذاتها في الصفحة"303" من الجزء الثاني تحت عنوان "الكلام على أنواعٍ من القداح" ولاداعي لذكر النصّ هاهنا؛ لأنّه مشابهٌ لنصّه السابق، ويحمل المعلومات ذاتها.

ولمّا كانت الأندلس أرض خصبٍ وعطاء، برزت مظاهر التّرف على حياة ساكنيها، ونكاد نرى ما كانوا عليه من غنىً حملهم على الإسراف أحياناً، وإذا كانت حدود اللباقة، وحواجز أخرى تمنع القالي عن أن يقول لهم: كفى، فإنّ رجلاً مثله لايقبل بالسكوت على خطأ، أو فساد بهذا الحجم، ولهذا نستطيع فهم تلميحه الذي ورد على شكل استطراد في نهاية شرح الغريب من أبيات لِــ ضمرة بن ضمرة، 270/2 ، والتي مطلعها[21]:

بَكَرَتْ تلومُكَ بعد وهْنٍ في النّدى بَسْلٌ عليكِ ملامَتي وعِتابي

ليروي لنا حادثةً تحضّ على التواضع، واستقامة العيش بلا إسرافٍ ولا تقتير.

قال في ص282: ((وحدّثنا أبو بكر محمّد بن الحسن بن دريد قال: حدّثنا العُكلي عن الحِرمازي قال: بلغني أنّ مسلمة دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله وعليه رَيْطةٌ من رِياط مِصر فقال: بكم أخذت هذه يا أباسعيد؟ فقال: بكذا وكذا، قال: فلو نَقَصْتَ من ثمنها شيئاً أكان ناقصاً من شرفِكَ؟ قال: لا، قال: فلو زدت في ثمنها شيئاً أكان زائداً في شرفك؟ قال: لا، قال: فاعلم يا مسلمة أنّ أفضل الاقتصاد ماكان بعد الجِدَة، وأفضل العفوِ ماكان بعد القُدرة، وأفضل اللين ماكان بعد الولاية))[22].

فالخليفة يقيم حواراً مع واليه، ويأخذ عليه زينته وإنفاقه الزائد على مظهره. فقد انتزع منه الاعتراف بأنّ شرفه في عمله لا في رَيْطته.

نعم أحبّ القالي الأندلسيّين، لكنه لم يكن أعمى عن كلّ ماالتّصفوا به، ومالوا إليه. ثمّ إنّ حبّه هذا دفعه لصونهم من كلّ العيوب ليسيروا إلى الأمام. ومن جهة أخرى، لم يشأ فضح مارآه فاسداً فيهم أمام الآخرين، لأنّه لو فعل هذا لسبقت الإساءة الفائدة.

والمثال الأخير الذي سنذكره على استطراد أبي علي في سياق النقد التلميحي، ورد في نهاية شرح مقصورة ابن صفوان الأسديّ، بذكر حادثةٍ جرت بين معاوية ووالِيه، يقول في ص255: ((حدّثنا أبو بكر رحمه الله قال: حدّثنا العتبيّ عن أبيه عن جده قال: ولّى معاوية روح بن زنباع فعتب عليه في جناية فكتب إليه بالقدوم، فلمّا قدم أمر بضربه بالسّياط فلمّا أقيم ليُضْرَبْ، قال: نشدتكَ اللهَ يا أمير المؤمنين، أن تهدِمَ منّي ركناً أنت بنيتَه، أو أن تضعَ منّي خسيسَةً أنت رفعتَها ، أو تُشمِتَ بي عدوّاً أنت وقَمْتَه، وأسألُكَ بالله إلاّ أتى حلمُك وعفوُكَ دون إفسادِ صنائعك ، فقالَ معاوية: إذا الله سنّى عقدَ أمرٍ تيسّر ، خلّوا سبيله))[23].

فأبو عليٍّ يشرح قصيدةَ ابن صفوان، وبغضّ النظر عن مضمون القصيدة، فإنّ إقحامَ النّصِّ السابق الذكرِ أمرٌ واضح، ولايعقلُ أن يساعدَ هذا النصُّ في إيضاحِ معنىً، أو إثباتِ فكرة. لكنَّ أبا عليّ أراد أن يدين خليفةً من خلفاء بني أميّة دونَ التعرّض إليه مباشرةً مراعاةً لشعورِ الأمويين الذين يعيشُ في كنفهِم، ويلقى منهم الحبّ والرعاية .

فإذا كان معاوية يقتنع بدفاعٍ فيه منطق ، فلمَ لم يبادر إلى سؤال واليه المتهم، وإفساح المجال له ليدافع عن موقفه؟ ثمّ ما التهمة التي يُضرَب لأجلِها والٍ بالسياط؟ وكيفَ يُعفى عنه بمجرَّد توسّل؟

لقد حاولَ أبو عليّ إثارة كلِّ هذه الأسئلة، وأراد أن يقول: كان معاوية سريع الغضب والقرار، عرَّض نفسه لردٍّ يفضح ما زرعه في نفوسِ ولاته، وطبائعهم، فهو الذي بنى ركن الظُّلمِ في واليه، ورفع فيه الخسيسةَ، وعيّنَه والياً مع معرفته به، ثمّ حكم عليه بتسرّع وكأن لا شأن له، وعندما سمع دفاع الوالي الذي لا يخلو من منطق، عفا عنه، وتعامى عن فعلته.

وإنّ أبا عليّ الذي عُرفَ بحبِّ الأمويّين في الأندلس، وإعجابه بهم، لم يكن مجرّد مصفّقٍ لهم، إنّما كان عالماً جليلاً، انتقدَ ما رآه مذموماً عندهم كما عند سواهم، وأضاء على ما يشرّفهم من سيَرٍ وأخبار.

النقد التلميحيّ في استطرادات ابن الشجريّ:

هو الشريف ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن علي بن محمّد بن حمزة ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهم ،ويُعرَف بابن الشجري .توفّي سنة 542هـ، وقد عدّه مؤرِّخو الشيعة من مشايخ الإماميّة ، وأكابر علمائها ،وقد تولّى نقابة الطالبيين بالكرخ نيابةً عن والده الطاهر[24].

يُعدّ كتابه الأمالي من أنفس كتبه،وأكثرها إمتاعاً،أملاه في أربعةٍ وثمانين مجلساً ،وضمّنه علوماً كثيرة، ومعارف متنوّعة .

ومع انتماء ابن الشجري للعلويّة، وكونه من أكابر علماء الإماميّة، لم يؤثر عنه أنّه ألّف شيئاً عن عقيدة القوم، وأصول مذهبهم، بل دارت تصانيفه في فلك النحو واللغة والأدب، لكن لابدّ للإناء أن ينضح بما فيه، ولابدّ للقلب أن يميل إلى من يهوى.

وتبعاً لظروف عصره، والحياة السياسيّة فيه، لم يمتلك ابن الشجري الثقة، والجرأة، والمباشرة، في إظهار أفكاره، وعرضها، لأنَّ السّلاجقة الذين عاصرهم، لم ينتهوا عن اضطهاد الشيعة، وإن كان اضطهادهم أخفّ، فنحن نجد كثيراً من مصطلحات المعتزلة جاءت في أمالي ابن الشجري، وكذلك في شرحه آيات قرآنيّة بفكر يوافق الفكر المعتزلي. نذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر عبارة "منزلة بين منزلتين" التي وردت في أثناء تفسير كلمة المقتصد التي وردت في الآية الآتية: ((0000فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ000))[25]. يقول ابن الشجري بعد شروحات واستطرادات كثيرة: فلذلك كان المقتصد له منزلة بين منزلتين، فهو فوق الظالم نفسه، ودون السابق بالخيرات[26].

ونجد تكرار هذه العبارة في ردّه على معاصره، ملك النحاة أبي نزار الحسن بن صافي، يقول في المجلس الثامن والخمسين:((وقد كان شافهني هذا المتعدِّي طورَه بهذا الهُراء الذي ابتدعه، والهُذاء الذي اختلقه واخترعه، فقلت له: إنّ ضمّة المنادى لها منزلة بين منزلتين، فقال منكراً لذلك: وما معنى المنزلة بين المنزلتين؟ فجهل معنى هذا القول، ولم يُحسَّ بأنّ هذا الوصف يتناول أشياء كثيرة من العربيّة، كهمزة بَيْن بَيْن، التي هي بين الهمزة والألف، أو الهمزة والياء، أو الهمزة والواو، وكألف الإمالة، التي هي بين ألف التفخيم والياء، وكالصاد المُشْرَبة صوت الزاي، وكالقاف التي بين القاف الخالصة والكاف))[27].

وبالنظر في نسبة ابن الشجريّ، ومذهبه الشيعيّ، والتقارب بين فكر الشيعة وفكر المعتزلة، نجده يكثر من استخدام المصطلح المعتزلي "منزلة بين منزلتين" في هذا السياق، وقد يُقال إنّه استعمال لغوي بمعنى التوسُّط ليس

غير، لكن ما الذي يدفعه إلى استخدام مفهوم معتزليّ صراحة في معرض دراسة نحويّة؟ والنّحو علمٌ، والاعتزال تيّارٌ فكريّ.

والمألوف أنّ تكرار أمرٍ أو موقف ما يكسبه رسوخاً، ودلالةً أعمق، وهذا ما يجدر بنا الالتفات إليه فيما ذكره ابن الشجري في المجلس الثاني والعشرين، في تأويل قوله تعالى:

((وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا...))(28) قال: ومعنى أَغْفَلْنَا قَلْبَه: وجدناه غافلاً، كقولك: لقيتُ فلاناً فأحمدته، أي وجدته محموداً، وهو بهذا التفسير ينطلق من قاعدة المعتزلة المعروفة: أنّ الله لايخلق فعل الضلال والمعصية، وإنّما ذلك من فعل العبد.

إنّ شرح ابن الشجري لهذه الآية، القائم على مبدأ من مبادئ المعتزلة، لم يأتِ عبثاً، إنّما يدلّ على فكر المعتزلة المخزون في ذهن ابن الشجري، والذي لم يستطع أن يعبِّر عنه بشكل مباشر اتّقاءً لسلطة السلاجقة التي اضطهدت الشيعة وحاربت الفكر المعتزلي، وهذا ما يجعلنا نؤكّد أنّ تكرار مصطلح "منزلة بين منزلتين" في أكثر من مجلس لم يكن مصادفة، أو إظهاراً لمعنى لغوي. إنّما تلميحاً إلى فكر المعتزلة، وتذكيراً به. ذلك الفكر الذي لم يستطع التصريح به مباشرة، وفي الوقت نفسه لم يشأ حجبه عن متلقّيه. فكان الاستطراد خير وسيلة لبثّ آرائه، وتوصيلها إلى من يبحث عنها.

وفي سياق تأثّره بمذهبه الشيعي، نجد عند التمعّن في كتابه استطرادات أخرى، يذكر من خلالها بعض الحوادث التي تشير إلى قسوة بني أمية، وإساءتهم إلى الإسلام، ونذكر منها ما جاء في المجلس التاسع عشر في معرض الحديث عن أبيات لأعشى تغلب تتدّد بالأمويِّين، ويروي فيها قصة شمعلة بن فائد بن هلال التغلبيّ، الذي ورد اسمه في البيت الرابع منها، ومن هذه الأبيات[29]:

كأنّ بنـــي مروانَ بعــدَ وليــدِهِمْ جلاميدُ ماتَنْدى وإنْ بلَّها القطــرُ
وكانوا أناســاً ينفَحون فأصبَحُوا وأكثَرُ ما يعطونكَ النّظَرُ الشّــزَرُ
أَتُنسى إذا ما لم تَنُبْكُــمْ كريهــةٌ ونُدعى إذا ما هُزْهِزَ الأسَلُ الحُمْرُ
ألم يَكُ غــدراً ما فعلتُــمْ بشَمْعَلٍ وقد خاب مَن كانت سريرتَه الغَدْرُ
وكائــنْ دَفَعْنا عنكُمُ من عظيمــةٍ ولكــن أبيتُــم لا وفاءٌ ولا شُــكْرُ

فبعد أن يتحدّث عن ترخيم "شمعلة" ويظهر المعنى اللغوي للاسم ويستشهد بقول للشماخ، يعود ليذكر لنا قصّته، يقول: هو شمعلة بن فائد بن هلال التغلبيّ، وكان عظيم القدر في البادية، ذا جمالٍ وفضل، وكان نصرانيّاً، فطالبه هشام بن عبدالملك بأن يُسْلِم، لِما رأى من فَضله وجَماله، فأبى، فقال له هشام: لئن لم تفعل لأُطعِمنّكَ لحمك، وقال: حُزُّوا من فَخِذه حُزّةً خفيفة ولاتزيدوا على ذلك، ففعلوا، فقال: لو قُطِّعْتُ لما أسلمتُ على هذا الوجه، فلمّا خُلّي عنه قال أعداؤه: أطْعَمه هشامٌ لَحْمه، فقال[30]:

أمن حُزَّةٍ في الفَخْذِ منِّي تباشَرَت عِدَاتي فلا نَقْصٌ عليَّ ولا وِتْرُ
وإنَّ أميــرَ المؤمنيــنَ و فِعْــلَه لكالدّهرِ لا عارٌ بما فعل الدهرُ

ثمّ تابع حديثه عن ترخيم الاسم.

وهنا نتساءل: ألم يكن بمقدور ابن الشجري أن يتجاوز ذكر قصّة الخليفة هشام بن عبد الملك مع شمعلة في معرض حديثه عن ترخيم الاسم ؟ لولا رغبته في تصوير حادثة، ظاهرها إصرار على دخول الرجل في الإسلام، ومضمونها يتنافى مع أهم مبادئ الإسلام، في حريّة أتباع باقي الديانات السماويّة في اتّباع الإسلام، أو البقاء على

دينهم. وقد أصرّ ابن الشجري على التنديد بفعلة الخليفة، وإظهار سوء أثرها على الإسلام عندما ذكرقول شمعلة كردّة فعل على ما جرى له:(لو قطِّعت لما أسلمت على هذا الوجه) وألا نجد في بيتي شمعلة مطلق النقمة على الإسلام وأهله، واستهتاراً بالخليفة وشرّه ؟ فهوَ كالدّهر، مصائبه في أهله لاتُعاب.

وفي السياق ذاته، نذكر حادثةً أخرى وردت في المجلس الخمسين، وابن الشجري يتحدّث فيه عن موضوع لغوي، ويذكر عليه الأمثلة حتّى وصل إلى تركيب (ع و ى) فأوضح معناه بتقليباته المختلفة حتّى وصل إلى معاوية فقال: المعاوية: كلبة تُجْعِل، أي تطلب الذكر فتعاوي الكلاب، وهي كلبة مُجْعِل.

ورُوِي أنّ شَرِيك بنَ الأعور الحارثيّ –وكان من أصحاب أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام– دخل على معاوية، فقال له متعرِّضاً به: إنّك لَشَرِيكٌ، وما لله من شريك، وإنّك لابنُ الأعور، والصّحيح خيرٌ من الأعور، وإنّك لدميمٌ سيِّئُ الخُلق، فكيف سُدْتَ قومك ؟

فقال له: وأنت مُعاوية، وما معاويةُ إلاّ كلبةٌ عَوَت فاستَعْوَت، فسُمِّيت مُعاوية، وإنّك لابنُ صَخْر، والسَّهلُ خيرٌ من الصّخر، وإنّك لابن حرب، والسِّلم خيرٌ من الحرب، وإنّك لابن أُميّة، وما أُميّةُ إلا أَمَةٌ صُغِّر بها، فكيف سُمِّيت أميرَ المؤمنين ؟

فقال معاوية: واحدةٌ بواحدة والبادي أظلَم، فأنشأ يقول: (31)

أيشتُمُني معاويـــةُ بنُ حرب	**وسيفي صارمٌ و معي لساني**
وحولي مِن ذَوِي يَمَنٍ لُيوثٌ	**ضَراغِمـــةٌ تَهَشُّ إلى الطِّعانِ**
فلا تبسُط لسانَك يا بن حرب	**فإنّك قد بلغْتَ مـــدَى الأماني**
فإنْ تـــكُ من أميَّةَ في ذُراها	**فإنِّي في ذُرى عَبـــدِ المدانِ**
وإن تـــكُ للشّـــقاءِ لَنا أميراً	**فإنّا لا نُقيـــمُ على الهـــوانِ**

فترضّاه مُعاوية. ثمَّ تابع ابن الشجري تفسير بعض المفردات.

ومن الحقّ أن نقول: لقد كان بإمكان ابن الشجري غضّ النظر عن الحادثة كلِّها، أو الاكتفاء على الأقل بتوضيح المعنى اللغوي لاسم معاوية، ثم إن ذكر الحادثة وذكر أبيات "شريك" إِثْرها، يدلان على رغبة في التنديد بمعاوية، ونقد تفكيره، وأسلوبه في التعامل مع أصحاب أمير المؤمنين، وموقفه منهم. فهو يبادر بمهاجمة من لا يوالونه، فيحقّرهم، ويتغاضى عن احتمال ردِّهم عليه بالمثل أو أكثر. وإذا كان قبول معاوية ردّ شريك عليه بهذا الأسلوب الشديد اللهجة نقطة تضاف إلى فضله، فهو الخليفة، الآمر،الناهي، فهل يصمد هذا الفضل فيه أمام كلّ مأورده ابن الشجري من تفسير معنى اسمه، وما أورده على لسان شريك نثراً وشعراً؟

وأخيراً نجد ابن الشجري يستطرد ملمّحاً إلى بعض أعدائه ومنافسيه، مظهراً سخطه عليهم، وهم أبو نزار الحسن بن صافي المعروف بملك النحاة، ومكّي بن أبي طالب، وتلميذه ابن الخشّاب. وفي سياق موقفه من أهل اللغة نجده لايواجه أشخاصاً بعينهم، بقدر ما يريد فضح زمانه، وسلطته، التي سمحت بالفوضى، وتطاول المعاصرين على الأوائل، ومناوأة الصغار للكبار. ففي المجلس الثامن والخمسين، بعد أن يردَّ على معاصره ملك النحاة، ويبيِّن خطأه، وسوء فهمه في كثير من القضايا، يختم مجلسه مستطرداً بقوله:

((ومن العجب أنّ هذا الجاهل يُقْدِم على تخطئة سلف النحويّين، وخَلَفِهم، وتخطئة الشعراء الجاهليّين والمخضرمين والإسلاميّين، فيعترض على أقوال هؤلاء وأشعار هؤلاء، بكلامٍ ليس له محصول، ولا يؤثَر عنه أنّه قرأ مصنّفاً في النحو، إلاّ مقدّمة من تأليف عبد القادر الجرجانيّ، قيل: إنّها لا تبلُغُ أن تكونَ في عَشْر أوراق، وهو

مع ذلك يردُّ بِقِحَتِه على الخليل وسيبويه. إنّها لَوَصْمَةٌ اتّسمَ بها زمانُنا هذا، لايبيدُ عارُها، ولا ينقضي شنارُها، وإنّما طلب بتلفيق هذه الأهواس أن تُسَطّرَ فَتْوى فيُثْبِتَ خطَّه فيها مع خطِّ غيره، فيقال: أجاب أبو نزار بكذا، وأجاب غيرُه بكذا، وقد أدركَ لعمرُ اللهِ مطلوبَه، وبلغ مقصودَه، ولولا إيجابُ حقِّ مَنْ أوجبْتُ حقَّه، والتزمتُ وِفاقَه، واحترمتُ خِطابَه، لصُنْتُ خطّي ولفظي عن مجاورة خطِّه ولفظِه))[32].

وقد ورد من ابن الشجري أيضاً ردٌّ على ابن الخشّاب، شديد اللهجة في المجلس الثامن والسبعين، بعد إعراب بيت ابن ميّادة[33]:

ألا ليتَ شِعري هل إلى أمِّ مَعْمَرٍ سبيلٌ فأمَّا الصبرُ عنها فلا صَبْرا

حيث يقول: ((واعترض بيت ابن ميّادة، وقد كنتُ ذكرتُه فيما تقدّم من الأمالي، جويهلٌ، فزعم أنّ قافيته مرفوعة، وإنّما صغّرتُه بقولي: جُوَيْهِلٌ؛ لأنّه شُوَيِّب استولى الجهلُ عليه، فعدا طَوْرَهُ، وجاوز حَدَّه، مع حقارةِ عِلمِه، ورداءة فهمه))[34].

وهذا البيت من مقطوعة منصوبة القوافي، وقد جاء بحاشية أصل الأمالي أنّ هذا الجويهل هو ابن الخشّاب.

وأخيراً نذكر تعليقه في نهاية المجلس الحادي والثمانين والذي عنونه: "بذكر ما لم نذكره من زلّات مكّي" بعد أن خطّأه في مجمل أقواله، وتفسيراته:

((وإيراد مكّي لهذه الأقوال الفاسدة، من غير إنكار شيء منها، دليل على أنّه كان مثل قائليها في عدم البصيرة))[35].

ونحن إذا أمعنّا في صيغة مهاجمته نحويّي زمانه، نجدهُ قد خرجَ عن طورِه، فخاطبهم بأسلوبٍ قاسٍ، ولهجةٍ حادّة. ولا يكون هذا من شخصٍ معتدلٍ مثله إلاّ عندما عَظُم البلاء، وانفلتت الأمور من عقالها، فطغى القَدْحُ والذمّ على الحجّة والبرهان.

فهاهو ذا واحدٌ من أهل اللغة يترجَّلُ عن صهوة البلاغة، ويمشي في وحل التهجُّم والتهكّم بالمعاصرين. فلرُبّما كان ابن الشجري، بصورةٍ ما، ضحيّة ما انتقده في عصره.

الاستنتاجات والتوصيات:

- لا فصل بين المبدع وواقعه من حيث ضخامة المخزون المعرفي ،والحاجة إلى التعبير عنه اعتداداً به ،وإيماناً بأهميته .
- أثر الواقع الاجتماعي والانتماء المذهبي والسياسي على مواقف العلماء ،وأثر مواقفهم من سلطة زمانهم في أساليبهم ،وخاصّةً في اتّباع أسلوب الاستطراد .
- تأثّر المبدع في تعبيره بالطريقة الّتي جمع فيها علومه ،فقد كان تنوّع العلوم ،واكتسابها شفهيّاً ومن غير منهجيّةٍ واضحة –غالباً–من أبرز الأسباب في وجود أسلوب الاستطراد لخدمة غرض النقد التلميحي .

لقد أصبح أولئك العلماء والشيوخ معالم فكريّة راسخة ؛إذ مثّلوا زمانهم ،ونقلوا إلينا صور الحياة ،وتداخل الفكر مع السياسة والاقتصاد ،فكان نتاجهم خير زادٍ في دراسة العصر الّذي عاشوا فيه ،ولهذا نراهم علاماتٍ فارقة ،ونرى أماليهم لوحات زاخرة بالفكر والمشاعر والمواقف ،تستأهل منّا مزيداً من الجهد في دراستها ، وإفراد أبحاث مستقلّة لها تسبر أغوارها ، وتضيء جوانبها .

خاتمة:

تناول البحثُ الاستطراد والنّقدَ التلميحيّ عندَ ثلاثةٍ من أصحاب الأمالي، عاشوا في مراحل زمنيّة متتالية، ومثّلوا تيّاراتٍ ومذاهبَ متباينة. هؤلاء هم: اليزيديّ310هـ، والقاليّ356هـ، وابن الشجريّ542هـ.

وقد حاول البحث أن يقف على بعضٍ من استطراداتهم التي خرجت إلى غرض النّقد التّلميحيّ للإشارة إلى نقاطٍ سلبية، تدين سلطةً، أو تذمّ واقعاً اجتماعياً، لم يشأ الشيخ التعبير عنها مباشرةً، تجنّباً لغضب سلطةٍ، أو مراعاةً لشخصيّة معلّم لايليق بها الفضح المباشر، أو التجريح الصريح. فكان الاستطراد مطيّةً لهم، استطاعوا من خلاله بثَّ آرائهم في تضاعيف كتبهم، فعبّروا عن مواقفهم، وميولهم دون إثارة انتباه المعنيّين، وسخطِهم.

فاليزيديّ استطرد معبّراً عن استيائه من سلطة زمانه، وسوء الواقع المعيشيّ في كنفها. فلمّح إلى حالة الفقر والجوع التي يحياها النّاس، وندّد بأبي جعفر المنصور، وصوّر خيبة أمل الناس فيه، واستعار من موروثه ما يعلي شأن الأمويّين، مظهراً بذلك فساد بعض الخلفاء العبّاسيّين على مبدأ المقارنة، كما لم يتغاضَ عن مساوئ بعض بني أميّة، فحقّق شخصيّة الأستاذ المعتدل الذي لم ينجرف في اتّجاهٍ معين، بل كان همّه إظهار الحقيقة كما رآها.

أمّا القالّي فقد استطرد ملمّحاً إلى كثرة مجالس اللهو والخمر، وإلى حياة التّرف والبذخ عند الأندلسيّين، واستطرد إلى حوادث من سيرة أجدادهم النّاصعة. وهدفه من ذلك أن يصونوا نعمتهم، ويدعموا حكمهم، فكان بذلك معلّماً لم تجرفه عاطفته عن جادة الصواب، فما كثرة الأخبار المشرّفة التي رواها من سيرة الأمويّين إلاّ حضٌّ للأندلسيّين على متابعة سيرة أجدادهم، وفي الوقت ذاته لم يفته التلميح إلى بعض خلفاء بني أميّة، الّذين لم يطغَ البياض على صفحات سيرتهم.

وبهذا كان القالّي عالماً محبّاً، لمّح إلى مارآه خطأً وعيباً، هادفاً إلى تصحيح الخطأ، وتجاوز العيوب.

أمّا ابن الشجري الذي عاش في القرن السادس ،وعاصر السلاجقة ،فقد ساعده أسلوب الاستطراد على بثّ بعض مصطلحات المعتزلة ،ومفاهيمهم،التي لم يكن التصريح بها ممكناً في أيّامه ،كما استطرد إلى بعض الحوادث التي تلمّح إلى قسوة بني أميّة ،وسوء معاملتهم لمن لا يوالونهم،ولم يكتف بهذا بل ذمّ العصر ،وما آلت إليه الأحوال فيه من تطفّل الصغار على الكبار ، وتطاول الجهلة على العلماء ،من خلال ردوده القاسية على بعض معاصريه ومنافسيه.

وأخيراً ،لمّاكانت قراءة ما بين السطور خير َالقراءة ،فإنّ التعبير بالتلميح خيرُ التعبير. وإنّ الجهد القليل الذي يُبذل لفهم ما يُراد من القول يزيده جمالاً وجاذبيّة .فكثيراً ما تبدو الطبيعة في ضوء القمر الواهن أحلى منها في النهار المشمس .

الإحالات:

(1) –الاستطراد: أسلوب من أساليب التعبير ،وطريقة من طرائق النقل والتوصيل ،ونعني بذلك : الانتقال من موضوع إلى آخر ،ومن فكرة إلى أخرى،من غير رابطٍ منطقيٍّ،أو إشارةٍ واضحة .

(2)–الأمالي :جمع إملاء على غير قياس. أو هي جمع أملية كأغنية وأمسية،قال حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون ،يصف التأليف في هذا الفن :"هو أن يقعد عالم وحوله تلاميذه بالمحابر والقراطيس،فيتكلّم بما فتح الله سبحانه وتعالى عليه من العلم،ويكتبه التلاميذ فيصير كتاباً،ويسمّونه الإملاء والأمالي...."ص 161.

(3)_يُنظَر: مقدّمة الأمالي :1،الزركلي. الأعلام 52/7 ،ياقوت الحموي .معجم الأدباء97/2. السيوطي. بغية الوعاة : 124/1.وقد قيل له العدوي نسبة إلى عدي بن عبد مناة بن تميم وهي قبيلة مشهورة ولم يكن منهم وإنّما كان من مواليهم ،وقيل له اليزيدي لأنّه كان منقطعاً إلى يزيدي بن منصور الحميري خال المهدي يؤدِّب أولاده فنسب إليه .

(4)–سليمان بن مهران الأسدي بالولاء ،أبو محمّد الملقّب بالأعمش ،تابعي مشهور ،أصله من بلاد الريّ ومنشؤه ووفاته بالكوفة ،كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض ،ت 148هـ.يُنظر:وفيّات الأعيان :400/2-403،الأعلام:135/3.

(5)–الأمالي :89-90 .

(6)–المصدر نفسه :90.

(7)–المصدر نفسه :90.

(8)–المصدر نفسه :90 .

(9)–سورة البقرة :"2"((واذْكُروا اللهَ في أيّامٍ مَعْدوداتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ في يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيهِ لِمَنْ اتّقى واتّقوا الله واعلَموا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرون))"203" .

(10)–المصدر نفسه:90.

(11)–سورة الأعراف :"7"((وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قالوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ على الظّالِمين))"44".

(12)المصدر نفسه :140.

(13)–المصدر نفسه :73.

(14)–المصدر نفسه :73.

(15)–يُنظَر:مقدّمة الأمالي ،الأعلام319/1 ،الضبّي.بغية الملتمس :216-219 ،ابن حلّكان .وفيّات الأعيان: 226/1-227 ،السيوطي ،بغية الوعاة : 453/1 ،وعن سبب تسميته بالقالي يقول :"لمّاانحدرنا إلى بغداد كنّا في رفقة كان فيها أهل قالي قلا ،وهي قرية من قرى منازجرد وكانوا يُكرَمون لمكانهم من الثغر ، فلمّا دخلنا بغداد نُسبت إليهم لكوني معهم ،وثبت ذلك عليّ "مقدّمة الكتاب".

(16)–الأمالي : 6/2.

(17)–الديوان :163 ،الوظيف :ما بين الرسغ إلى الركبة ،عجر :غليظ .

(18)–الديوان :75 .

(19)–البيت مجهول النسبة في اللسان ، المادة: جُنْبل128/11.

(20)–الديوان :143 .

(21)–الأمالي: 279/2 ،والبيت مطلع مقطعة من خمسة أبيات ،وجدت في كتاب جمعه وحققه صلاح كزارة بعنوان :شعر تميم في العصر الجاهلي ص :34 قائل الأبيات هو :ضمرة بن ضمرة بن جابر النهشلي ،من بني دارم :شاعر جاهلي من الشجعان الرؤساء .يُقال كان اسمه "شقة بن ضمرة "فسمّاه النعمان "ضمرة" ،وهو صاحب يوم "ذات الشقوق "من أيّام العرب في الجاهليّة .أغار فيه على بني أسد ،وظفر بهم في مكان من ديارهم يُسمّى ذات الشقوق" الزركلي .الأعلام 216/3 .

(22)–الأمالي : 282/2 .

(23)–الأمالي : 255/2 .

(24)–يُنظَر: مقدّمة الأمالي ص15، الأعلام62/9 ،معجم الأدباء282/19 ، وفيّات الأعيان96/5،وقد اختلف في نسبته إلى ابن الشجري ،هل هو نسبة إلى شجرة ،وهي قرية من أعمال المدينة ،أم إلى أحد أجداده ،كان اسمه شجرة ؟

(25)–سورة فاطر"35" ((ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِيْنَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيْرُ)) "32" .

(26)–الأمالي100/1.

(27)–الأمالي 368/2 .

(28)–الأمالي 226/1 ،سورة الكهف "18" ((وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيْدُوْنَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيْدُ زِيْنَةَ الْحَيَاةِ الْدُّنْيا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)) "28".

(29)–الأمالي 187/1 ،وجاء في حاشية الأمالي أنّ الأبيات من قصيدة في ديوان الأعشين ص289 –290، وهذه الأبيات موجودة في كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير(الأعشى والأعشين الآخرين) 290/3 ، وقد وردت على الشكل الآتي:

كأنّ بنـــي مروان بعــد وفاتهِ	**جلاميدُ لاتندى وإن بلّها القطــرُ**
وكانوا أناساً يُنتَحَون فأصبحوا	**وأكثر ما يعطونك النظــرُ الشزر**
أننسى إذا ما لم تنلكم كريهــةٌ	**وندعى إذا ما هُزهِز الأسَلُ الحُمْر**
ألم يكُ غدراً ما فعلتم بشــمعلٍ	**وقد خابَ من كانت سريرتَه الغدر**
وكم قد دفعنا عنكمُ من ملمَّــةٍ	**ولكن أبيتــم لا وفاءٌ و لا شُــكر**

(30)–الأمالي 190/1 ،وقد جاء في حاشية الأمالي أنّ البيتين نُسِبا إلى شمعلة في المكاثرة ص7 ،وجعلهما أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني 284/11 من قول أعشى تغلب .

(31)–الأمالي 253/2 –254 ،والأبيات موجودة في الحماسة البصريّة 70/1 .

(32)–الأمالي 373/2 –374 .

(33)–الديوان :133 .

(34)–الأمالي 133/3 .

(35)–الأمالي 185/3 .

المراجع:

- القرآن الكريم.
- الأصفهاني، أبو الفرج. الأغاني، شرحه وكتب هوامشه سمير جابر. بيروت: دار الكتب العلميّة، ط2/1992 م.
- الأعشى، ميمون بن قيس . الديوان. شرحه وقدّم له مهدي محمّد ناصر الدّين. بيروت : دار الكتب العلميّة، ط1/1997م.
- الأعْشَين . الديوان ، صنعه أبو العباس ثعلب ، طبع في كتاب " الصبح المنير في شعر أبي بصير (الأعشى والأعشين الآخرين) ، مطبعة آدلف هلز هوستن بيانة 1927.
- امرؤ القيس. الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. مصر: دار المعالي،1958م.
- البصريّ، صدر الدّين بن أبي الفرج بن الحسين. الحماسة البصريّة، تحقيق مختار الدين أحمد. الهند: حيدر آباد ، ط1/1964م.
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. دار الفكر، 1982م.
- الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله. معجم الأدباء.بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأخيرة.
- ابن خلّكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد. وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حقّقه إحسان عباس. بيروت: دار صادر. دون تاريخ.
- الزركلي، خير الدين. الأعلام، قاموس تراجم. ط3 ، دون تاريخ.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. بغية الوعاة في طبقات اللغويّن والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه،ط1/1964م.
- ابن الشجري، هبة الله بن ضياء الدين بن علي. الأمالي، تحقيق ودراسة محمود محمد الطناجي، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط1/1992م.
- الضبي، أحمد بن يحيى. بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس. طبع في مدينة مجريط بمطبع روخس.
- الطيالسي، جعفر بن محمد. المكاثرة عند المذاكرة، تحقيق محمد بن ثابت الطنجي. أنقرة، 1956م.
- عمرو بن كلثوم، الديوان. صنعه علي أبو زيد. دار سعد الدين ط1/1996م.
- القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم. الأمالي. بيروت: دار الجيل ، ط2 ،1982.
- كزارة، صلاح. شعر تميم في العصر الجاهلي. ألمانيا: ايرلانجن،1982م.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب. بيروت: دار إحياء التراث العربي، دون تاريخ.
- ابن ميّادة. شعر ابن ميّادة، تحقيق حنّا جميل حداد. مراجعة قدري الحكيم. دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية1967م.
- اليزيدي، أبو عبد الله محمد بن العباس. الأمالي، تقديم عبد الله بن أحمد العلوي الحسيني. الهند: حيدر آباد، مطبعة جمعية دائرة المعارف، ط1/1367هـ..